

وهران في مسرح سيرفانتيس

د/ أحمد حمومي*

الملخص:

يعالج محتوى المقال المسرحية التاريخية للسرفانتاس والتي تجري أحداثها بـ"منطقة وهران والمرسى الكبير أثناء الاحتلال الإسباني، وفي سنة 1563 بالتحديد حيث تم تشديد الحصار من طرف القوات الجزائرية برا وبحرا، على الجيش الإسباني، وهذه الدراسة عبارة عن مقارنة منهجية بما أجاد به الأدب الإسباني حول تاريخ وهران أثناء الاحتلال الإسباني.

Abstract

This study deals with the historical piece of Cervantes, that takes place in the region of Oran, the great and the marina during the Spanish occupation, and in 1563 precisely where they were tightening the siege by Algerian forces of earth and from sea to the Spanish army, and this study is a systematic approach by the Spanish literature on the history of Oran during the Spanish occupation.

-مقدمة:

لئن كان تأثير الإسبان بينا في مجالات عدة إلا أن الجزائر عموما ووهران على سبيل الخصوص تركت بعض الأثر فيما أنتجه الكتاب الإسبان ونخص بالذكر أكبر كاتبين عرفهما القرنان الخامس عشر والسادس عشر وهما المخضرمان سرفانتيس ولوبي دي فيجا. Cervantès & Lope de Vega.

1- سيرفانتيس في وهران:

عرف تاريخ الأدب سرفانتيس مغامرا مهووسا باكتشاف العالم وراغبا في صنع نفسه ومكانة له في الحياة. إضافة إلى منافسة لم تعلن عن ذاتها جمعته ولوبي دي فيجا إنضم جنديا في الرابعة والعشرين من عمره في الأسطول الإسباني وشارك في معركة لوبانتي (Lépante) ضد الأتراك¹. إلا أن

* - أستاذ باحث في العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 1 - أحمد بن بة، الجزائر.

من ألف عيشة الحل والترحال والتيه لا يستخلص العبر فشارك في معارك أخرى² حتى كان اليوم الذي أسره الأتراك فيه في السنة 1575. بعدما أطلق سراحه³ وعاد إلى بلده في خريف 1580 هاجمه أحد الرهبان فأرغم على الوقوف أمام المحكمة. كان التدين المفرط-من حيث المظاهر الخارجية، على شاكلة طرطوف مولير- هو السمة الشائعة وهو القاعدة، ولكنه كان محظوظا لأن من قاسموه السجن⁴ بادرُوا بالشهادة لصالحه، فخرج صاحبنا نظيفا من أدنى شبهة وخرج المدعي مردودا، ولكن سيرفانتيس خرج أيضا صفر اليدين خاوي الوفاض، وصديقا حميما للتعاسة التي طيرت أحلامه، وكانت سنده الوحيد في الحياة. لم يجد حلا، بعدما بحث مليا عن شغل⁵ ينال من ورائه قوته اليومي⁶، سوى الاتصال بالملك فيليب الثاني ذاته⁷. فتسنى له أن يزور وهران: [فقد] "عاش كاتب دون كخوتي الخالد بين ظهراي المدينة قرابة الشهر ليس في الظروف المخزية التي تكون من نصيب العبيد ولكن في صفة المبعوث الخاص للملك الكاثوليكي"⁸. كان طموحه يرقى إلى تكليف دائم يشرفه الملك به، إلا أن هذا الأخير يكتفي بتكليفه بمهمة سرية لدى حاكم وهران: بلاغ التعليمات الملكية إلى الحاكم على المحلة؛ كان الحاكم، اقتداء بسابقيه يحاول جاهدا بسط النفوذ الإسباني وتوسيع الرقعة الجغرافية للمحلة. زكان في مفاوضات مع بعض القبائل وبخاصة مع قائد مستغانم- ثاني ميناء في المنطقة بعد وهران. وقد كانت محاولات الضباط الإسبانين في السيطرة على مستغانم حثيثة منذ 70 سنة.

ويضيف كازناف أن القايد ومن معه من القبائل ضاقوا صدرا بنير الأتراك. كان حاكم وهران قد اقترح مشاريع تحالف مع القادة العرب وطلب زيادة في الذخيرة والجنود. وكانت رغبة الملك الدفينة الانتقام لأبيه الذي فشل على أبواب الجزائر في 1541. وكان- من باب الغاية تبرر الوسيلة- اللجوء إلى جواسيس أو إلى "شراء" التحالفات مطلوبا كما المعلومات الدقيقة حول حالة الإيالة. وهكذا حمل سيرفانتيس "إرادة" ملكه إلى وهران من خلال رسالة تعتمده لدى السلطات العسكرية⁹. إستقبله الحاكم دون مارتين ورحب به -

كما يليق بمقام مبعوث صاحب الجلالة، ولكن أيضا لأنه كان بينهما قاسم مشترك تمثل في وقوعهما أسيرين بين أيدي ذات السجانيين¹⁰، ثم إنه وجد فيه جليسا ممتعا. اتصل سيرفانتيس بأناس كثيرين ويسمع أخبارا كثيرة وعلى وجه الخصوص يستمع إلى سرد وقائع الحصار الذي ضربه الأتراك على المدينة في 1563 وكيف استطاع الجند بقيادة الحاكم¹¹ دون مارتن أن يهوه ويفكوا الخناق عن المدينة. وهذا الذي وجد فيه موضوعا مسرحية يخلد فيها "البطولة" الإسبانية¹²، فيكتب الإسباني الشجاع¹³. تنتهي المسرحية إلى جنس المسرح التاريخي ومن ثم أهميتها لأنها سرد حقيقي/ خيالي لدفاع الأسبان عن وهران والمرسى الكبير ومحاولتهم فك حصار 1563. وقد عبر الكاتب ذاته عن تداخل الواقع والخيال في مسرحيته إذ يقول: "نيتي الأساس خلط بين الحقائق والعجائبي المبدع"¹⁴.

"بين" الإسباني الشجاع" و"الإسباني المغامر":

بدافع العروبة والإسلام فضل د. ميسوم عبد الإله تعريب المسرحية عوض ترجمتها. ولقد كان هذا الاختيار منفذا وجده ليتصرف في النص الأصلي. في واقع الحال قام د. ميسوم عبد الإله بما يسمى في راهن الوقت اقتباسا. لذا فإن "الإسباني الشجاع" أصبح "الإسباني المغامر". ويعلل موقفه هذا بقوله: "... وفي اعتقادي فإن الترجمة القائمة على محاكاة الأثر الأدبي يجب أن تحملنا إلى غاية سامية هي أبعد ما تكون عن الببغائية والتقليد الرتيب. ومن خطئ القول أن نفني أوقاتنا في التأثر بالثقافات الأجنبية للتباهي بترديد صداها وكأننا مجرد آلات لتضخيم أصوات الماضي عبر الزمان والمكان. (...) فقد رأيت من الخير أن أستفيد وأفيد من تجربته باستخدام الوقائع والأسماء والأماكن التاريخية لكن بعد اجتهاد في غربلتها وتصحيحها. يلاحظ كازناف أن الحكمة في مسرحية "الإسباني الشجاع" بسيطة وشبيهة شها غريبا حبكة المسرحيات المورسكية الأخرى وكذا القصة القصيرة "السجين" التي ضمها إلى الرواية دون كخوتة.

وقد أفادنا كازناف بملخص للمسرحية الأصلية: امرأة مسلمة تحب إسبانيا؛ إلا أن هذا لا يستطيع أن يجحد دينه فلن يتزوج إلا من مسيحية. فرناندو دي سافيدرا- شخصية نجدها في المسرحيات الأخرى وقد ضمنها الكاتب سماته - نقيب من بين أكثر زملائه بسالة في الذود عن وهران، وهو الجندي الذي يخشاه غير المؤمنين، بلغ صيت مآثره أركسا الأميره المسلمة التي تحترق شوقا إلى رؤية الإسباني الشجاع، تطلب بدافع نزوة نسائية من أليمزال - وكان يغالها - أن يأتيها بفرناندو حيا إلى "دوارها"، استجابة لرغبتها يتحدى أليمزال فرناندو عند أسوار وهران، يرفض الحاكم للنقيب رخصة الخروج، لكنه يخرج ليلا من المدينة - خلصة - ويسرع إلى مكان اللقاء؛ لا يجد غريمه فيغير اسمه ويتقدم سجيناً أمام أركسا، تنكر مارجريت التي وعدا فرناندو بالزواج في زي رجل وتلتحق بالعرب، في ذات الوقت تصل الحاكم دون ألونسو دي كوردوبا أخبار مفادها أن ملك الجزائر حسان يجمع قوات ضخمة لمحاصرة وهران والمرسى الكبير.

أما الفصل الثالث فيشكل الحصار مجمل أحداثه، تحت أصوار المدينة، حسان في مشاورات مع رجاله؛ يقترب الأسطول التركي بينما يستعد دون ألونسو وأخوه دون مارتين دي كوردوبا لمقاومة بطولية، يبدأ الهجوم ويسقط حصن ساميشال بينما يقاوم المرسى الكبير ببسالة، وعندما يحى الوطيس يظهر دون فرناندو الذي كان بين المهاجمين لكنه يدير سلاحه نحوهم ويأتي الخوارق، يتردد العرب بفعل ضرباته، يصاب أليمزال بجروح ويصيب ملك كوكو حتفه، وتسمع أجراس وطلقات مفرحة: إنها الأرمدا¹⁵ لإسبانية قد وصلت وينسحب الأسطول التركي ويتراجع الجيش التركي إلى الجزائر، يلقي دون فرناندو القبض على أليمزال وأركسا ومارجريتا، يحصل على عفو قائده ويطلب يد مارجريتا بينما تزف أركسا إلى أليمزال وتنتهي المسرحية.

هذا ما لا نقرأه في المسرحية بعد معالجتها من طرف د. عبد الإله ميسوم: "تجري أحداث هذه المسرحية التاريخية بمنطقة وهران والمرسى الكبير أثناء الاحتلال الإسباني، وفي السنة 1563 بالتحديد حيث تم تشديد الحصار من

طرف القوات الجزائرية برا وبحرا، على الجيش الإسباني المحتل، نحن في الفصل الأول بديار الأميرة كنزة قرب مدينة وهران/ وهي في خيمتها تستقبل المنصور قائد المجاهدين بالمنطقة، الذي يربطه بها رباط الجهاد من أجل تحرير الوطن ورباط الحب المتبادل، وتنفيذا لرغبتها يتحدى المنصور، عل أسوار المدينة، قائد الجيش الإسباني على وهران، المسمى دون فرناندو سافيدرا، الذي يمنعه الجنرال دون ألونسو من الخروج لمبارزة المنصور، فيحتال دون فرناندو للأمر ويتمكن من دخول ديار الأميرة، ويقيم بين المجاهدين مدة، ونحن في الفصل الثاني- داخل أسوار مدينة وهران مع دونا مارجريتا التي وصلت من إسبانيا متنكرة بزي الرجال مع خادمها فوزميديانو، باحثة عن دون فرناندو الذي أحبته بالسمع عنه دون أن تراه، تعلم في وهران بأن معشوقها قد تنكر لدينه ولقومه فاعتنق الإسلام والتحق بصفوف المجاهدين الجزائريين، ورغبة منها في الوقوف على حقيقة الأمر، تشارك بصفتها جنديا في غارة تشنها فرقة إسبانية يقودها الكابتن قوزمان بمساعدة جندي جزائري اسمه ناصر، وأثناء هذه الغارة الفاشلة تستسلم للأسر وتلتحق بمعسكر الأميرة كنزة مطلقة على نفسها اسم ماركو قبل أن تبوح للأميرة معلنة هويتها الحقيقية، في حين يخرج المنصور لاستقبال وفود المجاهدين القادمين من شرق البلاد بقيادة حسان بن خير الدين ومساعديه أمير سلطنة كوكو وأمير سلطنة بني عباس.

وتدور مشاهد الفصل الثالث حول تحرير المرسى الكبير والقلاع المحيطة به بعد فرار القائد الإسباني دون مارتين مع بعض جنوده إلى وهران لنجدة أخيه الجنرال دون ألونسو، وتجتمع جيوش الجزائريين حول أسوار وهران لتحريرها من المحتلين، فيغتنم دون فرناندو فرصة مناسبة ويتسلل من الجيش الجزائري فيدخل المدينة قصد إنقاذ قومه من هزيمة محققة، ينجح في مهمته ويتم جلاء آخر جندي إسباني تطبيقا لوثيقة صلح، ويغادر حسان باشا وهران على رأس جيوشه نحو العاصمة بعد الاحتفال مع الشعب بعيد الانتصار وبزفاف الأميرة كنزة إلى القائد المنصور، ولو أنه أعلن باقتباس ما

كتبه عن النص الأصلي لصاحبه سيرفانتيس لما كان في الأمر إشكال ولا ضائقة؛ فقارئ النص المعرب ينسب المحتوى إلى سيرفانتيس. يختم د. عبد الإله ميسوم مقدمته مؤكداً: "فإليك أيها القارئ العربي الكريم أقدم مسرحية "الإسباني المغامر" مطبوعة بطابع شخصيتك القومية الإسلامية¹⁶ ومصبوغة بلون تفكيرك التقدمي الناهض، وحسبي في عملي أن أكون من المجتهدين، والله ولي التوفيق، لكن ما هو صارخ وجلي انعدام التطابق بين المحتوى في النص "العربي" واسم المؤلف، فلو أعاد أحدهم ترجمة النص كما عرّبه د. عبد الإله ميسوم إلى الإسبانية ونسبه إلى سيرفانتيس وقدمه منشوراً بجر ذلك متابعات قضائية أكيدة، ولو أننا نفهم أن "معرباً" عربياً يعزف عن ترجمة ما جاء من نعت ألصقت بالمسلمين، فهذا دون مارتن، على سبيل المثال يصرخ حينما يرى الأسطول التركي شادا الرجال وجهة أرزيو: "أه! انظروا هؤلاء الكلاب يبحرون!"

-حصار وهران في السنة 1563:

بعد الهزيمة النكراء التي مني بها الجيش الإسباني في معركة مزغران¹⁷ بدأ الأسبان يفكرون في تحضير يكون أكثر جدية لكل هجوم لاحق¹⁸، وحتى يكون الاستعداد الإسباني على أتمه، طلب الملك فيليب الثاني من البابا الموافقة على قباضة ضريبة الجهاد الديني. (Taxe de Croisade)، وكان له ذلك¹⁹، لكن العمارة التي أرسلها أغرقها العاصفة²⁰، في ذات الوقت كان "حسان باشا قد أعد في ظرف بضعة شهور مدفعية هائلة وذخيرة ومؤن كافية، وجهاز أسطولاً وجيشاً"²¹ وقصد وهران والمرسى الكبير. يرى كازناف أن القائد التركي قرأ الواقع قراءة سليمة حيث اغتنم غرق السفن الإسبانية في هرادورا ثم في كاديث (Cadix) بعد ذلك، إغتنمه فرصة فأمر بالانطلاق نحو وهران والمرسى الكبير. كانت انطلاقته على حد تعبير صاحب المقال نقلاً عن المؤرخ الإسباني هايدو- في 5 فبراير 1563، وقد عبأ القبائل بدعوى محاربة الكفار، كما نصب قايد تلمسان على المقطع- حتى يحول دون التواصل بين الإسبان، ثم سار في اتجاه وهران ليكتشف الإسبان جيشه في 3 أبريل- يؤكد كازناف أن ذلك كان

عشية Le Dimanche des Rameaux - وهي عند المسيحيين أحد الشعانين، موعد الصوم قبل أحد عيد الفصح، حينها يرسل الجنرال دون ألونسو قائد المحلة مع حراقة أحد مساعديه، حط القائد رحاله يوم 5 أبريل²² في مكان يشرف على العين التي تمت المدينة بالماء وهاجم قلعة القديسين، ثم هدم قلعة القديس مغوال²³ (Miguel)، عندما قرر حسان باشا الهجوم على المرسى الكبير²⁴ إتفق الأخوان دون ألونسو ودون مارتن على أن يبحر الثاني لمساندة الجند في حماية المرسى، لم ينته الحصار لصالح الأتراك لأن النجديات قدمت من إسبانيا.

2- الواقع في مسرحية الإسباني الشجاع²⁵

إذا كان المسرح أكثر الفنون تأثيرا في العباد فلأنه أقرب إلى واقعهم؛ ربما لأن الممثلين خلال العرض يتحركون "أحياء" أمامهم، وكان سيرفانتيس، في مسرحه "الجزائري" أكثر التصاقا بالواقع، يؤكد كازناف بالنسبة إلى مسرحية سيرفانتيس أنها تحمل عناصر كثيرة من الحياة في وهران كما شاهدها سيرفانتيس حين القيام بمهمته²⁶. فالجوع الذي كان الملازم الأول للجند قبل الحصار وحينه وبعده وجد له حيزا في المسرحية²⁷. ذلك "أن التموين الذي كانت إسبانيا مصدره الأساس لم يكن يصل بانتظام، ولا شك لفي أن سيرفانتيس شاهد حين تجواله عبر الأزقة فقراء في هندام غريب يستعطفون الأغنياء والغرباء، (...) [كما عرض الكاتب في المسرحية] سرد وقائع إحدى الغارات التي كان الإسبان يشنونها بين الفينة والأخرى في الضاحية، إما لمعاقبة قبيلة مناوئة أو من أجل التموين"²⁸ من ناحية أخرى، فإن اختيار الواقعية²⁹ نهجا في الكتابة سمح لسيرفانتيس بتضمين مسرحيته تفاصيل طبوغرافية³⁰ وتاريخية³¹.

كما أن العلاقة بالواقع في هذه المسرحية تبرز من خلال الشخصيات، الإسبانية³² منها والمسلمة³³. وجدت الوقائع التاريخية ذاتها مكانا لها في مسرحية سيرفانتيس³⁴. وكان لوصول الأسطول قرب المرسى الكبير صورة

حية في أذهان الرواة الذين استجابوا لرغبته³⁵ والأمر كذلك بالنسبة إلى سقوط حصن سان سوفور³⁶ Saint-Sauveur، يورد كازناف بصدد سقوط هذا الصرح معلومة مفادها أن الشاعر "عبد الرحمن ابن محمد ابن موسى نظم قصيدة بمناسبة احتلال جيش حسان صرح سانسوفور"³⁷ مع العلم أن مرجعه ابن مريم صاحب "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"³⁸ إلا أننا عثرنا في التحفة المرضية على قصيدتين للشاعر ثانيتهما مثبتة تاريخيا، فلا علاقة لها بحصار 1563³⁹ يتابع سيرفانتيس تشبته بالواقع ليضمن مسرحيته كيف فك الحصار على وهران والمرسى الكبير⁴⁰، حاول حسن باشا إنهاء الحصار لصالحه بالإجهاز على المرسى الكبير لكنه عدل عن الفكرة بمجرد لوح الأسطول في الأفق، فراحت السفن التركية تشق عباب البحر في اتجاه أرزيو⁴¹.

-الهوامش:

- 1- كان ذلك في السابع أكتوبر 1571، وهو اليوم الذي فقد فيه سرفانتيس - خلال هذه المعركة - يده اليسرى ليتحول إلى "أقطع ليواني" (Le manchot de Lépante) وباللسان الإسباني El manco التي سارت على لسان الوهرانيين.
- 2- يشارك في معركة نفران (Navarin) في الساحل اليوناني - في 1572 ثم يكون حاضرا حين استيلاء الإسبان على تونس في 1573- ولو أنهم يفقدونها في السنة الموالية- ويقع سيرفانتيس سجيناً في 1575.
- 3- وقد اشترى حريته إخوان الرحمة (les Frères de la Merci)
- 4- وكان - حسيما جاء في كتب تاريخ الأدب - إنسانا مرحا خفيف الظل فكها.
- 5- كما يذكره تاريخ الأدب معتدا بنفسه، فكان بحثه إلا عن عمل يليق بمقامه.
- 6- أطلق سراحه في 24 أكتوبر 1580، وقضى ثلاثة أشهر في استرجاع قواه وفي فبراير 1581 تقدم والدته العقد الشرعي الذي يتضمن ابتياع حريته أمام المجلس الصليبي - وهو إجراء لا بد منه حتى يلج الحياة العملية. انظر Cervantès à Oran م.س.ص 216.
- 7- وكان قد ألف قصيدة رثى فيها زوج فيليب الثاني، الملكة إزابلا، في السنة 1568 على حد تعبير د. ميسوم عبد الاله. ينظر مقدمة الإسباني المغامر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1982. ص 7) فالتاريخ يذكر ماري تودور Marie Tudor زوجة لفيليب الثاني، وقد وافتها المنية في السنة 1558.
- كما أن Henri-Léon FEY يخبر القارئ بأن زوجة الملك فيليب الثاني Jeanne وافقت، قبيل معركة مزغران، على طلب الكونت ألكوديت في الحصول على مده ب 6000 جندي إضافي للهجوم على مستغانم. م.س.ص 90
- 8- حمل رسالتي التزكية التي منحه إياهما في وقت سابق كل من دون خوان، أخو الملك فيليب* - وهو ابن سفاح لشارل الخامس (Charles Quint) ودوق سيزا نائب الملك على إيطاليا. كان الملك وقتها في

البرتغال الذي بقي من دون ملك؛ فقد قتل ملكه دون سيباستيان في معركة القصر الكبير** في المغرب في السنة 1578.

Jean CAZENAVE. CERVANTES A ORAN in Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie 1923.p 215

* أسعى نفسه الكاثوليكي لأنه اعتمد في حكمه على محكمة التفتيش الدينية (l'Inquisition) و سطر له هدفا تمثل في نصرة الكاثوليكية بالقضاء على دعاة الإصلاح وعلى المورسكيين المسلمين الذين أجبروا على اعتناق المسيحية- والذين يرحل منهم 250000 نسمة في 1609 تاركين فجوة في الاقتصاد الإسباني وفي الزراعة على وجه الخصوص.

** وهي المعركة التي قادها أحمد المنصور أشهر السلاطين السعديين

9- كان الحاكم، اقتداءً بسابقيه يحاول جاهدا بسط النفوذ الإسباني وتوسيع الرقعة الجغرافية للمحلة. وكان في مفاوضات مع بعض القبائل وبخاصة مع قايد مستغانم - ثاني ميناء في المنطقة بعد وهران. وقد كانت محاولات الضباط الإسبانين في السيطرة على مستغانم حثيثة منذ 70 سنة. يضيف كازناف أن القايد ومن معه من القبائل ضاقوا صدرا بنير الأتراك. كان حاكم وهران قد اقترح مشاريع تحالف مع القادة العرب وطلب زيادة في الذخيرة والجنود. وكانت رغبة الملك الدفينة الانتقام لأبيه الذي فشل على أبواب الجزائر في 1541. وكان - من باب "الغاية تبرر الوسيلة" - اللجوء إلى جواسيس أو إلى "شراء" التحالفات مطلوبا كما المعلومات الدقيقة حول حالة الإيالة. وهكذا حمل سيرفانتيس "إرادة" ملكه إلى وهران من خلال رسالة تعتمده لدى السلطات العسكرية. انظر Cazenave ص 216/217.

10- إبان حكم والده الكونت آل كوديت الأكبر، شارك في معركة مستغانم (1558) التي انهزم فيها الإسبان أمام الأتراك هزيمة شنعاء وقع إثرها سجيناً في الجزائر. كان من بين 8000 أسير واعتبر قائدهم فكانت الحراسة مشددة عليه. كما كانت مشددة على سيرفانتيس الذي حاول غير ما مرة الفرار من السجن. كما أنه بعث - وهو سجين - إلى هذا الحاكم خطابا يطلب فيه مساعدته ورفاقه على الفرار. كما أن كلا منهما اشترت حريته ولو أن أخا الحاكم، دون أولونسو دفع 23000 ريال ذهبي بينما وجد سيرفانتيس حريته مقابل 500 ريال ذهبي فقط. كازناف (ص 221)

11- بدأ الحصار سنتين بعد تحرير دون مارتين من الأسر، ولم يكن بعد حاكما ولكنه قاوم المحاصرين بصفته قائدا. وصار حاكما في السنة 1575.

12- وبسالة دون مارتين الذي أكرم وفادته. ثم ألم يكن له حساب مع "الأتراك" فيصفيه؟

13- نشرت المسرحية في 1615 ويؤكد كازناف (ص 223) أنها لم تعرض وكاتبتها على قيد الحياة. يضيف صاحب المقال أن سيرفانتيس ضمن "إضافة" إلى سفر البارناس* - le Mont Parnasse وهو جبل مقدس من طرف اليونان في العهود الغابرة. فإضافة إلى احتوائه معبد أبولو ديلفس فإنه كان موطن ربات الفنون، وموضع إلهام الشعراء - عدة عناوين لمسرحيات ألفها (20 أو 30 دراما - والكلام هنا لسيرفانتيس - الباحث) منها "الحياة في الجزائر" و"المعركة البحرية". يستخلص كازناف أن مسرحية "الإسباني الشجاع" تكون قد كتبت في الزمن ذاته لأن "الذكريات موجودة بدقة فائقة كما أن الحكمة الغرامية وشخص كثر نجدها في "الحياة في الجزائر".

* يذكر د. ميسوم عبد الإله "في سجون الجزائر" وهي في "ثلاثة فصول أو أيام، بطلها دون فرناندو زوج كوستانسا التي اختطفت في شاطئ إسباني من طرف قرصان، فارتى زوجها في البحر وتمكن بمشقة من الوصول إلى الجزائر حيث التقى بزوجته الأسيرة بعد بحث طويل، فشاركها حياة الأسر. يتدخل في

أحداث المسرحية شخوص من الجزائريين والأسبان يحركهم الحب والكراهية، والتعلق بالحرية، والتمسك بالعقيدة الدينية (قاسى سيرفانتيس نفسه من تهمة الفتور الديني لولا أن شهد له رفقاء السجن بالاستقامة والشجاعة وبالوفاء للدين الكاثوليكي، فهذه جزائرية تعشق إسبانيا، وهذه إسبانية تعشق جزائريا، فيثير هذا العشق أو ذاك في نفوس بعض الناس عواطف الغيرة أو العطف أو الاستنكار، ولهمود الجزائري أدوار في المسرحية، ثم في النهاية تبرز عدالة حسان باشا وتنتصر الحرية على الاستعباد" وكذا "الملكة العظيمة" *** LA GRAN SULTANA و "الإسباني الشجاع" EL GALLARDO ESPAÑOL ولا يذكر "الحياة في الجزائر"، التي يوردها كازناف مع الثلاث السابقة (ص224) وجميعها شكل ما أطلق عليه اسم الموريسكيات، والكلمة "المور" maure أو more باللسان الفرنسي، الممورو "moro باللسان الإسباني مصدرها من المقاطعتين الرومانيتين موريتانيا القيصرية Maurétanie césarienne عاصمتها شرشال (Césarée) وقد أطلق عليها الملك يوبا الثاني اسم Julia Caesarea إكراما لحاميه ومربيه يوليوس قيصر. وموريتانيا التنجنتانية Maurétanie tingitane عاصمتها طنجة (Tingis) ومن أشهر مدنها وليلي Volubilis. كان الفاصل بين المقاطعتين نهر الملوية. في القرن الثالث بعد الميلاد ظهرت موريتانيا السيتيفية عاصمتها ستيفيس Sitifis سطيف الحالية. وكان سكان هذه المناطق في لسان الرومان "موري" mauri.

*** فصولها أو أيامها ثلاثة أيضا وبطلتها دونيا كاتالينا أوفييدو، أسيرة إسبانية في حرم كبير الأتراك الذي أحبا حبا شديدا دفعه إلى إعتاقها بغية الزواج منها، إلا أنها تمسكت بدينها المسيحي، فوافق كبير الأتراك على احترام عقيدتها، وتم زواجهما فصارت بذلك ملكة المسلمين، وارتفعت مكانتها عند زوجها بعدما علم أنها حامل، فلبى رغبته بإصدار العفو على كثيرين من الأسرى المسيحيين، ومنهم شخوص بارزون في هذه المسرحية التي تنتهي في القسطنطينية المغمرة بالتفاؤل "الملخصان بقلم د. ميسوم عبد الإله ص. 12.

14- ذكره كازناف (ص224) ود. عبد الإله (ص14) أورد الإثنان قول سيرفانتيس في لغته الأصلية:

Mi pricipal intendo
Ha sido mezclar verdades
Con fabulos inventos

15- "هي الأسطول المنيع" « l'Invincible Armada » والتي قيل عنها اندثرت تحت ضربات الأسطول الأنجليزي، ولو أن هذا ربما لم يكن سوى ضربة إشهار انجليزية..

16- وللتأكد مما قاله إليك ملاحظة إحدى شخصيات المسرحية مارجاريتا بعدما وقع بصرها على الفارس العربي المنصور: "ما أبهى طلعة هذا الفارس العربي حقا إن الفروسية عند غير العرب بدعة".
الإسباني المغامر ص 64

17- كان ذلك في 26 غشت 1558 وخلالها لقي الجنرال الإسباني وحاكم وهران الكونت دي ألكوديت - والد دون ألونسو ودون مارتين - حتفه، بل لقد مات شرميتة. وقد خلدها الشاعر الشعبي لخضر بن خلوف في قصيدة مزغران.

18- في السنة 1562 قرر الملك فيليب الثاني إرسال عمارة لتقضي على الأسطول التركي - وكان القبطان علي باشا قد أتلّف الأسطول الإسباني قرب جزيرة جربة في ماي 560، والذي شدد الحصار على وهران طيلة أربع سنوات. كازناف م.س. ص231

19- كان الفائتان - الوصي على الكاثوليكية - غيورا على سلطته وسيطرته على الكنيسة، فكان يمنح حق رفع الضرائب الدينية ويسحبه إذا رأى ذلك؛ علما أن الكنيسة في القرون الوسطى كانت إقطاعية

بأتم معنى الكلمة؛ وقد انجر عن هذا التعسف التيار الإصلاحي الذي نادى به كل من كالفن ومارتن لوثير. كما يبرر قوله ماركس الشهيرة: "الدين أفيون الشعوب" وكان حديثه موقفا من الكنيسة الكاثوليكية.

20- جهز أسطولا من 50 قوادس لكن عاصفة هوجاء أتلفته ي 19 أكتوبر 1562 في شرم هردورا قرب سواحل غرناطة. (كلمة Herradura تعني حدوة الحصان)

21- كان الجيش الأرضي يضم 15000 من الأتراك و12000 فارس من قبلي زواوة وبني عباس و1000 سبايس بينما اعتزلت الميدان ثلاث قبائل كانت تساند الإسبان وهي بني عمر وأولاد موسى وأولاد عبد الله. انظر كازناف م.س.ص 230.

22- أما هانري ليون في فيرى أن حسان باشا يشد الرحال في 15 أبريل بينما كان القبطان كوشوباري باشا قد أنزل العباد والعتاد في أرزيو، قبل أن يتوجه إلى المرسى الكبير حيث يلحق به حسان باشا في 4 ماي.

23- كان في الجبل المشرف على الميناء، هلك كل دفاع القلعة و500 انكشاري. م.س.ص 102/103. لكن كازناف (ص 232) يؤكد سقوط القلعة بعد ما سلم الناجون من الإسبان أنفسهم بواسطة مرتد (عن المسيحية) ودخله الأتراك.

24- لعلمهم أن حصار وهران سيطول. م.ن.ص.ن.

25- يستطيع قارئ المقالة أن يكون له فكرة بينة عن المسرحية من دون الرجوع إلى نص سيرفانتيس. فلا غرابة في أن نضفي على هذا العبقري صفة الرائد في مجال الأثر الفني الواقعي. فمسرحياته الموريسيتكية تماثل الواقع أيما تماثل. بدبي أننا نبقى على العنوان الذي اختاره سيرفانتيس لمسرحيته. كما نبدي ملاحظة نراها منهجيا من الأهمية بمكان، مفادها أن الكاتب يتعامل مع واقع عاشه غيره قبل ثمان عشرة سنة.

26- كما يؤكد أنه سار هنا سيره في المسرحيات التي موقعها في الجزائر. مثاله على ذلك شخصية الجندي الضحك بويتراغو الذي يمثل جنديا في حالة جوع دائمة. وقد وصفه سيرفانتيس بدقة: سيفه من دون غمد ومشدود بخرقة. كازناف ص 226

وبويتراغو هذا يفقد بفعل قلم د. عبد الإله ميسوم جانبه الهزلي ليتحول إلى جندي ينعت به بالأحمق لكن كلماته لا تشير إلى ذلك بل تنم عن وعي حين يحدث دون مارتن أو عندما يقدم النصيح لقادمين حديثين (مارغاريتا ومولاه فوزميديانو) بالرجوع إلى إسبانيا هروبا من الجحيم.. كما يبدي في حضرة الجنرال - هو الجندي البسيط - رأيه في الحرب المنتظرة قائلا: "بل هي الحرب الطاحنة بين الصليبية والإسلام. ويؤمني أن تستخدم المسيحية شعاعا للغزو والاحتلال. (ينظر نص المسرحية المعرب ص 58). ويكون السؤال هل يعقل أن يأتي على لسان سيرفانتيس هذا الكلام؟

27- وكانت السفن لتي بعث بها ملك إسبانيا في 1562 محملة أيضا بالمؤمن لأن المجاعة أصبحت خير أنيس للجنود الإسبان. وهذا بويتراغو سيرفانتيس مرة أخرى " يحمل لوحا كتب عليه دعاء للأرواح في المطهر (وهو عبد المسيحيين الفضاء الذي يتطهر فيه المؤمنون من كل ذنوبهم قبل الدخول في عالم السعادة الأبدية). وباسمها يتسول. "وهذه الطريقة في التسول من أجل الأرواح ليست اختراعا مني، رأيها أنا شخصا" (استخرج كازناف هذه الشهادة من النصوص الكاملة لمسرحيات سيرفانتيس، الجزء الأول، ص 65) م.ن. الصفحة ذاتها.

28- يلاحظ كازناف تطابقا غريبا بين ما جاء على لسان سيرفانتيس وما كتبه المؤرخ سواريث Suarez بشأن هذه الغارات - وكأن سيرفانتيس شارك بذاته في إحداها. " نرى أهليا - ناصر عند الكاتب والمعرب - يتقدم إلى حاكم المحلة و "بييع دوارا" (كذا) أي يخدع بني دينه ثارا منهم ويعرض نفسه قائدا للحملة (...) يتم التحضير في عجل وتتحرك الحملة في صمت تام تفاديا لتفطن القبائل ويتم الهجوم على حين غرة؛ وهنا يكون التقتيل والنهب، ت يتم العودة حثيثة والجند يقتادون الأسرى والهائم نحو وهران حيث يتم اقتسام الغنائم " م.ن. - ص 226/227

29- لا يؤخذ اللفظ بالمفهوم الذي ذاع صيته في القرن العشرين، بعد بروز التعبير الفني باسم الطبقات والفئات الاجتماعية المحرومة. بينما نظن أن وقع حصار 1563 في نفوس الحضور الإسبانيين كان بقوة شديدة تركبهم يذكره بأدق التفاصيل ثمان عشرة سنة بعد الواقعة. ولا نغفل أيضا أن الفنان سيرفانتيس يكون قد ألح عليهم أيما إلحاح من أجل تسجيل أكبر كمية من الأحداث.

30- ورد فيها وصف لقرية كانستيل حيث ضبطت سفينة صغيرة تركية عندما اقتربت منها للتموين بالماء. ويلاحظ كازناف على المؤرخ مارمول خطأ في موضوعة كانستيل. يقول مارمول "وهو على بعد فرسخين*" ونصف من وهران جهة الغرب" بينما توجد جهة الشرق

* الفرسخ من ثمانية كيلومترات وجاء في النص الأصلي (à trois lieues** d'Oran) م.ن. ص 227. Une lieue mesure quatre kilomètres**

31- في ذات الصفحة يسجل كازناف أن سيرفانتاس يرجع المنصور (Alimuzel) إلى نسب قبيلة los galanes de Meliona ولفظة galant في اللسان الفرنسي تعني الإنسان الوسيم الرشيقي وتحمل أيضا معنى الفارس* اللطيف وهي قبيلة تحدث عنها مارمول وأبوراس (الشهادة لكازناف) الذي يضيف "أفرادها من أكثر أهالي المنطقة - شمالي تلمسان - تدريبا على الحروب وأكثرهم شهامة. * ظهرت الفروسية في أوروبا الإقطاعية في القرن الحادي عشر وبدأت تتحرر من الغشاء الديني فأصبحت شبه لائكية في القرن السادس عشر.

32- دون مارتين القرطبي بطل الحصار والفراتين (El Fratin) - مهندس معماري التقى به سيرفانتيس في وهران خلال مأموريته الملكية، وعلى الرغم من عدم وجوده إبان الحصار في 1563 إلا أن خيال الكاتب وقلمه أحضره - دون فرناندو دي كاركامو حامي المرسى الكبير خلال الحصار وكان صديقا وفيها لدون مارتين - شاركه في معركة مستغانم وقاسم صديقه مرارة السجن ودون ألونسو أخو دون مارتين وحاكم وهران إبان الحصار.

33- حسن باشا بن خير الدين وكان باي لرباي. وكان الباب العالي قد عزله في السنة، 1551 وهي ذات السنة التي انتصر فيها على شريف فاس السعدي، لأن درامون السفير الفرنسي لدى القسطنطينية وشى أنه كان ينوي نشل الإيالة من السلطة العالية - لكنه يعود على رأس الإيالة في 1557 وينتصر مجددا على حاكم فاس وعلى والد دون مارتين الكونت الكوديت الأكبر في معركة مزغران الشهيرة - ويبقى كازناف عليها تسمية معركة مستغانم (كازناف ص 229) معركة خلدها الشاعر الشعبي الأخضر بن خلو ف قصيدة هذا مطلعها:

يا فارس من تم جيت اليوم	قصة مزغران معلومة
يا عجلانا ريش الملاجوم	ريت جناب الشلو موشومة
يا سايلنتي على طراد اليوم	قصة مزغران معلومة

34- "يقول دون ألونسو [في مسرحية سيرفانتيس] سيغلق أخي على نفسه في المرسى الكبير وسيظهر لذي من تكون البسالة" نقله كازناف انظر الهامش الأول في ص. 233. كما يذكر سيرفانتيس الحراقات التي أنتت فعلا! من قرطاخينة في ليلة 30 أبريل لنجدة وهران: "تقول إحدى الشخصيات لحسان، جاء ألفارو دي باثان - سبب ذعر الأمم الكافرة - لنجدة وهران على الرغم من الحراقات. ولم يغفل النهج الذي اتبعه الإسبان في الاتصالات فالحدث المتمثل في إرسال دون ألونسو زورقا إلى أخيه دون مارتين - وكان على الزورق أن لا يستعري انتباه الأتراك - وجد له حيزا في المسرحية حيث يساق إلى حسن باشا إسباني كان يحاول المرور من وهران إلى المرسى الكبير.

35- فهذا بويتراغو يصرخ: إلى السلاح! إلى السلاح! أسرع مولاي! لأنني أرى على صفحة البحر الزرقاء صواري مزركشة عديدة لأسطول رسم هلالا في الأفق. تدفع الرياح المجداف وتمط الشراع؛ والبحر الهادئ يستجيب لرغباتهم" كازناف ص. 236

36- يصف سيرفانتيس على لسان دون ألونسو سقط الحصن: "أظن أن ساميشال قد رد عشرين هجوما، لكن شراسة الهجوم الأخير ستؤدي إلى سقوطه... يكون ساميشال قد وقع بين أيديهم، تحتله جموع العرب (mores) ... لم يبق ساميشال: على أصواره يرفرف الهلال، أجمل من شمس الله. هرب بعض المدافعين إلى المرسى الكبير" م.ن. ص. 234

³⁷ م.ن. ص. 235

38- "وهو تجميع أتاه مدرس من هذه المدينة وهو ابن مريم الذي احتفظ لنا بشعر كان قد نظمه العالم الفقيه والشاعر عبد الرحمن بن موسى الذي حضر الحصار، كتبه ليواسي حسان جراء نكبته الأولى" م.ن. ص. 234 ويعني بهذه النكبة الخسائر الفادحة التي جاء في الرواية أن الجيش التركي تكبدها (ص. 233).

39- جاء في الروضة: "قال ابن مريم [وفي إحالة يعلمنا أنه أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بـ "ابن مريم التلمساني" أخذ على الشيخ المقرئ وقد ذكر مشايخه ومؤلفاته في كتابه البستان... وهي أحد عشر تأليفا. توفي سنة 1020 هـ 1611 م. الباحث] وهذه الأبيات الآتية نظمها (عبد الرحمن بن موسى [يعرفه المحقق في الهامش لى أنه عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن موسى الوجدعي (...)] ولد في حدود 929 هـ 1523 م، وتوفي يوم الجمعة 19 شعبان 1011 هـ 40 فبراير 1603] عند هدم الباشا حسين حصن المرسى الأعلى وهروب النصارى - دمرهم الله - للحصن الأسفل. وهذا مطلعها:

هنيئا لكم باشا الجزائر والغرب بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

ستفتح وهرانا ومرساتها التي أضرت بهذا الإقليم طرا بلا ريب

ويختتمها بتبني نظم هذه القصيدة:

وكتابه نجل ابن موسى محمد مقرب بتقصير في علمه والقلب

ثم يضيف المحقق وقال ابن مريم - أيضا -: وكان دخول المسلمين هذا الحصن ليلة السبت* جمسة عشر من رمضان عام سبعة وألف [وفي الهامش يقابلها المحقق بتاريخ 11 أبريل 1599 م.] تمت بحمد الله وحسن عونه. ونظم هذه الأبيات يوم حزن الباشا - أيده الله على من مات من المسلمين يوم الجمعة الأول في فتح الحصن ولا قوة قباليته قبل ورود المدافع من الجزائر المحفوظة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وهذا مطلعها:

أمولاي بالمختار من آل غالب أحبته والأصحاب كل الأقارب

إلى أن يقول:

فثق بالإله واصبرن تنل به مرادك «وهرانا» ومرسى القوارب
وقد وعد الرحمن جل جلاله «مع العسري سرا» لست في ذا بغائب
على قدر تقوى الله تأتي المواهب وتأتي على قدر الذنوب المصائب

يورد المحقق هنا نقلا عن ابن مريم: "وهذه الأبيات (...) عند هدم الباشا حسين" (وليس حسان - الباحث) مع أن الشاعر يذكر نجل خير الدين. وقد رجع محمد ابن عبد الكريم إلى طبعة 1908 التي أصدرتها المطبعة الثعالبية.

ينظر محمد بن عبد الكريم التحفة المرضية...م.س. في الصفحتين 279 و280.

* ربما كان لوقوع الحادثتين في يوم السبت - ولو أن المسافة الزمنية بينهما ست وثلاثون سنة - أثره في خلط كازناف بينهما حيث يقول في الهامش الأول في الصفحة 235 يضع ابن مريم - متفقا مع النصوص الإسبانية - تخلي الإسبان عن الحصن في الليلة من السابع إلى الثامن ماي 1563 (SAMEDI 8 Ramadan 970) أم إن الشاعر كتب قصيدتين الأولى لحسان باشا في 1563 والثانية لحسين باشا في 1599؟.

40- لا غرو من أن الملك فيليب الثاني لم يبق متفرجا على ما يقع في وهران، وقد كاتب ملك البرتغال لنجدة إسبانيا ببعض الحراقات وقد أجابه في طلبه هذا. كما أن نائب الملك على نابولي بادر بإرسال حراقات إيطاليا حالما بلغه من تونس نبأ حصار وهران. فتم ضمها إلى الأسطول الذي جهزه قبطان إسباني. إلا أن هذا الأسطول لم يباغت المحاصرين لأن خلافا حول السلطة نشب بين قائد الجزء الإيطالي والقبطان الإسباني. فتدخل الملك ليأمر مان أندري دوريا طاعة دون فرانسيسكو دي مندوزا، ونقرأ في المسرحية: "دزن فرانسيسكو أخو المقدام دون خوان الذي غرق في هرادورا يتهبأ مع زمرة كبيرة لنجدة المدينة" كازناف ص237.

41- يقول أحدهم - في نص سيرفانتيس - لحسن باشا: لماذا تبقى هادئا أيها المغوار؟ إذا أنت تأخرت لحظة أخرى فلن تنجو بواخرك وحراقاتك من قبضة الإسباني. "كما يتأسف دون مارتن على رجوع الأتراك سالمين.